على هامش معركة عين جالوت :

# بين مصر ولبنـــان

للأســـتاذ أحمد رمزى بك

أمراء الغرب البُخْتُريون من تنوخ[1] أهل المجد وأصحاب الرياسة فى لبنان كانوا طوال الأعصر الماضية حلفاء مصر ويدها اليمنى فى كثير من الملمات والحوادث . كانت « إعبية » معقلا لهم وفيها آثار قلاعهم وقصورهم ، ما مررت بها إلا وغلبتنى دمعة حاولت إخفاءها ، فقد دالت منذ زمن بعيد دولة أمراء الغرب وذهبت ريحهم أو قل مع الريح أخبارهم ، كما دالت وذهبت مع الريح دولة مصر الإسلامية التى كانت تهزّ الدنيا ويخشاها أهل الشرق وأهل الغرب .

وبقيت ذكريات ذلك العهد وآثاره وأعمال مصر الإسلامية العربية وجهادها وهى جميعاً تحرك النفس وتدعو إلى العجب من هذا النسيان الذى لا أجد له تفسيراً لدى أحد من الناس ، نعم عجبى من هذا النسيان الشامل الذى نعيش فى غمراته .

لقد ذهبت أخبار أمراء الغرب ودفعوا ثمن ما عُرف عنهم من ولائهم لمصر وعرشها[2] غالباً بعد معركة مرج دابق وزوال الدولة المصرية من الوجود ، ثم فنيت جموعهم واندكت صروح مجدهم ولم يعد يسمع لهم خبر بعد أن ورث المنيون وهم أتباعهم ثم أسيادهم الملك والإمارة من بعدهم ، وجاء الشهابيون وهم من أتباع آل معن فورثوا الإمارة والرياسة من هؤلاء ، فاندثرت الرياسة الكبرى لأمراء الغرب من تنوخ إذ هم الأصل والكل فروع ، مثلهم فى لبنان كمثل آل سلجوق فى الدنيا ، الكل لهم فروع من أتابكة وأيوبيين وأمراء من البحرية والبرجية وملوك من آل عثمان وسلاجقة الروم لأنهم كانوا الأصل والموئل والمرجع ومن سواهم فهم فروع لهم .

بنوهاشم فى كل شرق ومغرب  كرام بنى الدنيا وأنت كريمها

وسآتيك بنبأ من أخبارهم يحلو لى ترديده وذكره ، وهذا حديث يصح فيه قول البحترى :

وهو ينبيك عن عجائب قوم  لا يشاب البيان فيهم بلبس

فقد ذكر صالح بن يحيى خبر المرسوم الذى بعث به المعز أيبك[1] صاحب مصر إلى سعد الدين خضر أحد مقدمى أمراء الغرب وقال إن أهل الشام نسبوا أمراء الغرب إلى المصريين فجمعوا لهم جموعاً من العشائر النازلة فى بعلبك والبقاع وساروا بهم نحو جبال لبنان ، والتقوا معهم فى بلدة عيتات فى ٢ ذى القعدة سنة ٦٥٣ هجرية ، فاقتتلوا وكتب النصر لألوية أمراء الغرب ، وكان فارس المعركة وصاحب الشهرة واليد الطولى أمير منهم اسمه زين الدين صالح بن على بن يحتر بن على ، سطع نجمه من ذلك اليوم وسيأتى ذكره فى معركة عين جالوت وغيرها من حوادث الزمن .

وصالح بن يحيى هذا مؤرخ القوم قال « وجدت باسم سعد الدين منشوراً من الملك المعز أيبك التركمانى أول سلاطين الترك بالديار المصرية والعلامة « حسبى الله » وأبدى لنا تعجبه لأن بيروت كانت تتبع الشام والمنشور مصرى وهو يعلم أن الملك الناصر الأيوبى صاحب ديار الشام كان يروم أخذ مصر وإعادة ملك الأيوبيين كسابق عهده قبل أن يستقل بها أمراء الأتراك ، وكان المعز أيبك يدافع عن ملك مصر ويروم قهر الناصر ، وكانت حوادث وخطوب ومعارك ، وانتصر فيها المعز وزينت القاهرة ومصر وقلعة الجبل وقلعة الروضة عدة أيام حينما دخل العساكر والأسرى بين يديه والسناجق منكسة والطبول مشققة ، ولعبت الفرسان بالرماح على الخيول فى ساحة بين القصرين ، حتى إذا وصلوا إلى تربة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، صاح البحرية :

(١) ينتسبون إلى تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن على بن غيم بن النعمان بن المنذر — وتنوخ اسم حبشى .

(٢) حضر من أمراء الغرب نفر الدين معركة مرج دابق ولم يقاتل وخلع عليه السلطان سليم بناء على إشارة الغزالى ثم اشتد ضغط العثمانيين عليهم بعد ذلك ، هذا خلاف من اعتقل من أمرائهم لشبهة على أمانة ممالك مصر .

(١) تاريخ بيروت : أخبار أمراء الغرب . نشره الأب لويس شيخو

« أين عينك اليوم يا مولانا لترى أعداءك بين أيدينا » .

واستمر الأمر بين مصر والشام على المنازعة والمخاصمة حتى تدخل بين الملكين من أصلح الأمر على أن تكون بلاد الشام إلى العريش للناصر وأن تكون مصر للمعز .

وكان الفرنج على الساحل وبيدهم الحصون والمعاقل يغزون ويقاتلون المسلمين كافة من أهل الشام وأهل مصر ، وفي تلك الأثناء سقطت بغداد بيد التتار وساقوا خيولهم إلى أراضي الفرات والشام ، فأرسل الملك الناصر صاحب الشام ابنه الملك العزيز إلى هولاكو ومعه تقادم وعدة من الأمراء فوعده بنجدة لإنقاذ مصر من حكامها .

في تلك اللحظة انتهى أمر الأيوبيين أو قضوا على أنفسهم بالفناء بعد أن خالفوا تقاليد صلاح الدين وارتموا في أحضان الغاصب ، فضاعت منهم بلاد الشام ولم تقم لهم قائمة ، وأفقت الأقدار على جند مصر كتابة اللحمة الكبرى في عين جالوت التي تناقل حديثها الأجيال .

في هذه المعركة انضم إلى التتار أمراء وملوك من آل أيوب وغيرهم من مقاتلة المسلمين ، وجاء من أمراء الغرب من وقف في صفوف التتار يحارب بإرادته أو رغم أنفه ، وكان منهم زين الدين الذي أشرنا إليه فنقل عنه أنه حضر المصاف بين عسكر مصر والتتار على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨ فلما انهزم التتار وتفرقت جموعهم لجأ فريق منهم إلى المرتفعات واختار بعضهم قمة جبل يشرف على المعركة وتحصنوا هناك فأحاطت بهم المماليك السلطانية وسدت عليهم منافذ الخلاص فلحق بهم الأمير زين الدين وانضم باختياره إلى جند مصر وحارب التتار وأعجب مماليك السلطان بقتاله وقوة بأسه حتى صاروا يقدمون له النشاب من تراكيشهم (التركش هي جعبة السهام). ولما انتهت المعركة وجلس المظفر قطز ملك مصر ، وجيء بين يديه بالأسرى وفيهم ملوك المسلمين وأمراؤهم الذين أعانوا الخصم وحاربوا في صفوفه ، وقدموا إليه الملك المسعود صاحب قلعة الصيبة من ملوك بني أيوب وكان شديد الوطأة في حربه على المسلمين فأمر السلطان في الحال بضرب عنقه . وجيء إليه بالأمير زين الدين المذكور وهو من أمراء الغرب فتقدم مماليك السلطان جماعة وشهدوا في حقه وحسن بلائه وقتاله للتتار على ذروة الجبل فنظر المظفر إليه وعفا عنه .

ونقل عن زين الدين المذكور وصف شائق للمعركة يوم عين جالوت قال فيه « والله ما خفت في يوم أكثر منه » وذكر أنه رأى مع العسكر الطبول محمولة على ثلثمائة جمل حتى أخفى أصواتها وقع الضرب بالسلاح على القراقل (الدروع) والخوذ وما كان يتخلل ذلك من صراخ الرجال ، وذكر أن بين ما وقع بين يديه فرس هائل المنظر من خيول التتار كان يسابق عليها طويلا .

ذلك خبر أمير من أمراء الغرب على هامش معركة عين جالوت . أما مواقفهم بعد ذلك مع ملوك مصر أيام الظاهر وقلاوون وابنيه الأشرف خليل والناصر محمد فكثيرة ، تبرهن على ود وصداقة وتآلف مع مصر ، ومنها رسالة من ديوان مصر تقول : « قد بلغنا أن جموعكم قد تفرقت ، وأنتم تعلمون أن هذا الوقت الذي يظهر فيه مناصحة الدين والدولة القاهرة فليتقدم الأمراء أيدهم الله برد الرجال إلى جهة صيداء ، وليجتهدوا في المساعدة على حفظ هذا الثغر مؤيدين إن شاء الله » ...

أحمد رمزي

ظهر حديثا :

الطبعة الجديدة المزيدة من كتاب

# في أصول الأدب

يطلب من دار الرسالة
ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشا
عدا أجرة البريد